العدد (1849) السنة السابعة - الجمعة (16) تموز 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

نصر حامد أبو زيد.. حياة مكشوفة وموت غامض

عقيل عبد الحسين

في إطار الثنائيات الكثيرة التي يقوم عليها عالم وتقدم من خلالها المعاني والقيم تأتي ثنائية الحياة المكشوفة والموت الغامض التي تنتهي بها سيرة رجل عرف بالحيوية الفكرية وبإثارة الجدل والخلاف، رجل اسمه نصر حامد أبو زيد تعرض إلى التكفير والى حكم بالتفريق بينه وبين زوجته والفت كتب في الرد على آرائه وكتبه، واختار أن يعيش بسبب ذلك كله في هولندا.. وآخر ما تعرض له كان منعه من زيارة الكويت لإلقاء مجموعة من المحاضرات بدعوة من مؤسسة كويتية. وما أثاره ذلك من جدل داخل الكويت بدأ بين المثقفين والاسلاميين وكاد أن ينتهي إلى البرلمان. وهو أمر لم يكرهه أبو زيد بل رأى فيه عودة إلى الحياة التي يحبها. الحياة الصاخبة التي يحركها البوح المستمر بالرأي والموقف في اشد القضايا خطورة مثل قضايا الخطاب الاسلامي وقضية النص القرآني والشخصيات الاسلامية..

١

يرى نصر حامد أن أكثر التحديات التي تواجه كل الخطابات هو تحدي دخول المستقبل وتفادي لحظة الخروج من التاريخ. وعلى الكاتب ان يعمل من اجل تفادي تلك اللحظة من خلال الانتباه إلى الخطابات الأخرى والتفاعل معها. فالخطاب ينمو ويزدهر ويتطور ويتأثر بالخطابات الأخرى السائدة على اختلافاتها وخاصة تلك التي تصل إلى حد المغايرة فلا يوجد خطاب تنويري حديث إلا "وتأثرت أدواته المنهجية كما تأثر جهازه المفاهيمي ومفاهيمه التحليلية بأدوات واليات خصمه"(١).

يتبنى حامد أبو زيد الخطاب التنويري ويراه خطابا قادرا على طرح المشكلات الملحة التي تواجه المجتمعات العربية والتصدي لها بالتحليل وتقديم الحلول لها فهو خطاب مواجهة وخطاب استفزاز وخطاب كشف وتقويم وهو خطاب عصري ينصهر في العصر الذي نعيش فيه ويريد مواكبته وهو خطاب مستقبلي خلافا للخطاب المغاير أو النقيض الذي يرى في الإسلام حلا ويرى العودة إلى الماضي والى العصور الأولى الذهبية منجاة وملاذا في مواجهة الآخر وكفره وماديته.

ومن الواضح ان الخطابين، خطاب التنويريين ونصر حامد منهم والإسلاميين عامة، مختلفتان إلى حد التناقض ومن الطبيعي أن يمارس الخطاب الثاني اشد أنواع القمع مع الخطاب الذي لا يتماهى مع سلطته ومنطلقاتها الايديولوجية. القمع الذي تمثل بالوقوف ضد نصر حامد ابو زيد ومحاكمته وتفريقه عن زوجته في قضية حسبة مشهورة واضطراره للجوء إلى هولندا إبقاء على حياته.

إن وعي نصر حامد أبو زيد بتأثير اختلاف خطاب الإسلاميين، هو وعي متأت من تجارب سابقة لكتاب آخرين كعلي عبد الرازق وطه حسين، وهو الذي قاده إلى تعميق اثر الخطاب الإسلامي وقمعه للوصول إلى الحياة الواضحة التي يعرفها الجميع ويعرف صاحبها سواء أكانوا من المثقفين التنويريين أم من الإسلاميين أم من الناس العاديين.. فالجميع يعرف قصة أبو زيد الشخصية ويلم بأطراف من طروحاته العلمية الخاصة بتاريخية النص القرآني وبإمكانية الاستفادة من تأويله الذي يتجدد ويصبح وسيلة من وسائل التطوير والتحديث والمعاصرة خلافا لما يعتقده الإسلاميون ويدافعون عنه من قدسية النص القرآني وتعاليه عن التأويل ليكون ذلك داعيا للرجوع إلى الماضي وللعيش في عصر السلف وتكفير الآخرين ومحاربتهم وإجبارهم على أن يدخلوا المجتمع الإسلامي متحررين من جاهليتهم.

يعرف معظم الناس تفاصيل حياة نصر حامد أبو زيد الشخصية وبعض طروحاته العلمية شأنه شأن أي نجم تلفزيوني تستضيفه القنوات التلفزيونية ويتابعه قسم من الناس، وكل ذلك يعده نصر حامد انتصارا له حول انتصار خصومه إلى انتصار أشبه بالهزيمة "فالضحية التي تستسلم وتتراجع تبدو أقوى منهم". وهي اقوى منهم بوعيها بأن جهرها بآرائها يجعلها أكثر انتشارا وتأثيرا وقراءة ومشاهدة. ولذا يتمسك نصر بآرائه ولا يتراجع عنها رغم محاولات خصومه في ثنيه عنها كما فعل محمد عمارة المفكر الإسلامي المحسوب على المعتدلين وكان يحاول أن يقنعه بضرورة العودة عن آرائه الجريئة والتبرؤ منها ليضمن له العودة إلى حياته السابقة "هذا هو التفسير المعقول لحرص الإسلاميين على تفاوت اتجاهاتهم على أن ينالوا انتصارا بتراجعي عن اجتهاداتي"(٢)

٢

في كتاب نصر حامد ابو زيد هكذا تكلم ابن عربي يقول: "إن من الصعب على المسلم أن يفصل في خبرته الدينية بين التجربة الروحية وبين الأسس العقلانية التي تتبلور في وعيه تدريجيا عن عقيدته ودينه"(٣). فالأسس العقلانية التي جعلت نصر حامد أبو زيد على ما هو عليه وحددت ملامح حياته الصاخبة المكشوفة للجميع وجعلته نجما ومثقفا ومفكرا معروفا لا يمكن أن تلتقي مع التجربة الروحية التي تأتي من المجتمع الذي نشأ فيه ومن نسيج الحياة الدينية اليومية في القرية المصرية ومن الأسرة الريفية المتواضعة ومن كونه واحدا من الناس الذين اختلف عنهم وتميز وبرز بأسس عقلانية قد اختلفوا معه فيها ورفضوه من اجلها وعرفوه بها.. وأية خبرة دينية!! إنها الخبرة الآتية من قصص الأنبياء وكرامات الأولياء وأحاديث الصالحين من أسلاف القرية والقرى المجاورة من حفظ القران والتردد على المساجد لإقامة الصلاة ومن حلقات الذكر بعد صلاة العشاء كل يوم خميس ليلة الجمعة وهي التي يطلق عليها الحضرات حيث ينتظم الكبار في شكل دائرة ويتحركون حركات موقعة ذات اليمين وذات الشمال مع ترديد الأناشيد بقيادة شيخ الحضرة. لقد ظلت تلك الخبرة كامنة وموجهة له رغم ان الحياة أخذته مأخذ شتى وسلكت به طرقا عديدة راسمة له نهاية تشبه نهاية عم حسن المتصوف وصديق حامد والده الذي قرر الإفصاح والبوح، تماما كما فعل نصر بعد ذلك اللقاء ظنا منه أن ذلك البوح سيقوده إلى النجاح والى المجد العلمي والى الشهرة.. قال العم حسن لنصر حامد أبو زيد: انه سر لا استطيع احتماله أكثر من ذلك اعلم أنني سأعاقب لإفشاء السر لكنني لا احتمل الكتمان... كانت دموع صامتة قد بدأت تسيل من عينيه... ثم استجمع قوته وانفجر قائلا: يا نصر يا ولدي لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام. وأجهش في بكاء... لكنه لم يتوقف عن الحكي ونشيجه يتصاعد رأيته والله العظيم. فقلت له احبك يا رسول الله. فرد علي: وانأ احبك يا حسن. لم ادر ما أقول سوى أن أتممت ببعض عبارات لا معنى. كان الأمر بالنسبة لي غير مفهوم آنذاك.. بدأ يهدأ تدريجيا بعد أن انزاح السر الضاغط السر الذي يمثل إفشاؤه خطرا يترتب عليه العقاب"(٤).

يترتب على البوح العقاب ذلك ما ترسب في نفس نصر حامد أبو زيد وما لم يتفق أبدا مع تجربته العقلية بوصفه تجربة روحية عميقة كامنة تهدده بالخطر وتهدده بالنهاية نهاية غامضة تشبه نهاية عم حسن الذي باع قطعة الأرض التي يملك رغم معارضة أبنائه وانصرف إلى الديار المقدسة. فقد انتهى نصر حامد غريبا بعد إصابته بفيروس غريب لم يعرفه الأطباء ولم يحددوا له علاجا افقده الذاكرة ثم الوعي، الذاكرة التي كانت تختزن طروحاته المتعلقة بالخطاب الإسلامي والإسلام السياسي ووعيه الذي كان يحدد خطابه ويوجهه مقاوما للقمع الذي كان يمارسه الخطاب الإسلامي مستفيدا من ذلك القمع وتلك المواجهة في رسم ملامح حياة واضحة مكشوفة قائمة على البوح بما يرى ويعتنق من أفكار تثير الآخرين وتمس آراءهم ومواقفهم الراسخة التي تخدم السلطة وتعمق حالة التأخر الذي يعيشه المجتمع العربي والذي تنتفع به النخب المتسلطة والحاكمة والمستفيدة من دوام الحال على ما هو عليه.

٣

سيجر البوح إلى نهاية حتمية لنصر هي الموت بيد الإسلاميين أو صمتا بعيدا عن بلده، الصمت الذي رأى في حادثة منعه من دخول الكويت كسرا له. وهو عقاب رمزي لم يتوقع احد أن يصل إلى درجة عالية من الرمزية تمثل بهذا الفيروس الغريب الذي افقده الوعي والذاكرة وجعل خصومه يشمتون به ويرونه عقوبة إلهية نزلت به جزاء على أفكاره وآرائه. فيما هي نهاية ممكنة لذلك التناقض الحاد بين الخبرة العقلية ممثلة باتجاهه نحو البوح، والخبرة الروحية القارة في داخله والتي تجعله يتوقع دائما العقاب الذي جاء ليضع نهاية لسيرة أبو زيد السيرة التي قامت على حياة مكشوفة وموت غامض. وهي سيرة تنسجم بشدة مع وعي مجتمعه، المجتمع الذي يؤمن بالغيبيات وبالعقاب لكل من يتجرأ على الدين. سيرة تنسجم مع كون نصر حامد جزءا من هذا المجتمع وممارساته الدينية. كما انها في النهاية سيرة ذات بعد ثقافي تتشابه مع سير الكثير من الخارجين على إجماع مجتمعاتهم بأفكارهم، الداعين إلى التغيير الذين ينتهون إلى العودة إلى الإجماع أو إلى الصمت والموت غموضا.

لكنني أؤكد انها سيرة أكثر رمزية واشد تعبيرا من غيرها من السير وانها تتناسب مع إصرار نصر حامد أبو زيد وعزمه على الاستمرار في البوح.

الهوامش

الخطاب والتأويل، د.نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، ط١/ ٢٠٠، ٩.

السابق،١٢.

هكذا تكلم ابن عربي، د.نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، ط٢/ ٢٠٠٤، ٧.

السابق، ٩.

القانون رقم (٨٠)

التدبير القاسمي يعطي ثماره بعد مرور (٥٠) عاما

صبيح الحافظ

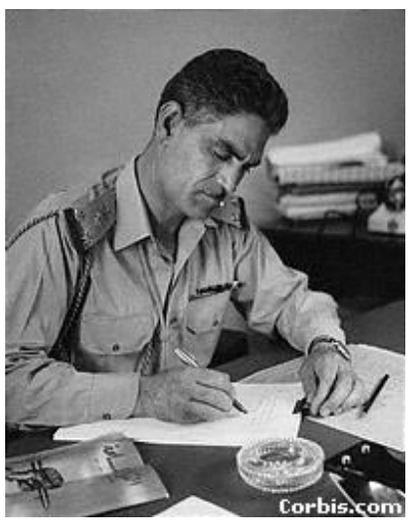

مدخل..

ان المنهج الذي أسير عليه في كتابة هذا الموضوع هو نفس المنهج الذي سرت عليه سابقاً وسأسير عليه في المواضيع اللاحقة وذلك نبش التاريخ من خلال فتح الأبواب المغلقة لخزائن المعلومات لاسترجاع الأحداث ورجالها الذين غيروا واقع العراق المظلم الى واقع مشرق.

وبحكم عمري الذي بلغ الثامنة والسبعين فأنني عاصرت أحداث العراق منذ ولاية الملك غازي وحتى يومنا، هذا جعلتني هذه المسافة الزمنية الطويلة قادراً لاستذكار مرحلة حكم الزعيم عبد الكريم قاسم.

في ١٤ تموز عام ١٩٥٨ حدثت ثورة وطنية قامت بها مجموعة من الضباط الأحرار برئاسة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم أنهى بها النظام الملكي الرجعي وأسس الجمهورية العراقية كأول حدث في تاريخ العراق وشكل الزعيم بوعي ثاقب ومدروس حكومة وطنية ائتلافية تضم جميع أطياف ومكونات الشعب العراقي من دون استثناء أو تهميش أية فئة.

ورغم قصر فترة حكم الزعيم عبد الكريم قاسم البالغة (٧-٤) اربع سنوات وسبعة أشهر ورغم وضع المطبات والاهتزازات والعراقيل التي قام بها أعداء النظام الجمهوري بهدف إسقاطه ولكن التفاف الشعب والقوى الديمقراطية والأحزاب الوطنية أجهضت تلك الأفعال والمؤامرات بما فيها اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٩ الذي استمر في تنفيذ مشاريع اقتصادية وتنمويه في مجالات الصناعة والإسكان ومكتسبات أخرى لاتعد ولا تحصى، واهم هذه المكتسبات هو إصدار قانون رقم(٨٠) وهو عنوان موضوعنا هذا.

لقد ورثت حكومة الثورة حزمة كبيرة من المشكلات في قطاع النفط مع الشركات العاملة في العراق والتي تقوم باستخراج النفط وتسويقه بسبب الاتفاقيات الجائرة وغير العادلة والتي أبرمت في العهد الملكي تحت ضغط نفوذ تلك الشركات المدعوم من قبل حكوماتها مع ضعف موقف حكومة العراق آنذاك، مما دعى حكومة الثورة مطالبة تلك الشركات بإجراء مفاوضات لحل تلك المشكلات والتي أضرت بحقوق الشعب العراقي طيلة أكثر من (٣٠) سنة مضت.

وفعلاً فقد بدأت المفاوضات في ١٩٦١/٤/٢ وكان الوفد العراقي المفاوض برئاسة الزعيم عبد الكريم قاسم وعضوية كل من:

١- الأستاذ محمد سلمان – وزير النفط.
٢- الدكتور طلعت الشيباني – وزير التخطيط.
٣- الأستاذ محمد حديد – وزير المالية.
٤- الأستاذ عبد اللطيف الشواف – المدير العام للبنك المركزي العراقي.

اما الوفد المفاوض لشركات النفط يتألف من:-

١- المستر هريج – المدير العام لشركات النفط.
٢- المستر ستيفنسن – ممثل شركة(شل).
٣- المسترفيشر – ممثل شركة سنناندرد اوبل اوف نيوجرسي.

وقد استمرت الاجتماعات بين الوفدين عدة أشهر وبتواريخ متقطعة بسبب سفر أعضاء وفد الشركات الى بريطانيا لعرض ما دار في تلك الاجتماعات من جهة، ومن جهة أخرى بهدف اخذ التوجيهات والصلاحيات وغيرها من الأمور الأخرى.

ونظراً لتعنت الشركات والمماطلة والتسويف التي أبداها ممثليهم وعدم رغبتهم في حل المشكلات وإعطاء العراق حقوقه المشروعه ولنفاد صبر الوفد العراقي حيث تجلت له ان وفد الشركات مصر على عدم اعطاء العراق أي شيء من متطلباته حتى في الحد الأدنى منها ما اضطرت الحكومة العراقية إلى قطع المفاوضات وإنهائها حيث أصدرت وزارة النفط بياناً بتاريخ ١٩٦١/١٠/١٧ تعلن فيه نتائج المفاوضات وموقف الشركات التعسفي حيث تعمدت التسويف والمماطلة بقصد كسب الوقت للتحري والاستئثار بالمناطق الغنية بالنفط ولتنفيذ أغراضها دون الالتفات الى مصلحة الشعب ودون مراعاة وجهات النظر العادلة التي أبداها الجانب العراقي.

وبعد توقف المفاوضات وإنهائها ورجوع ممثل شركات النفط الى بلدانهم أصدرت الحكومة العراقية بتاريخ ١٩٦١/١١/١١ قانون رقم(٨٠) والذي يقضي بتجريد الشركات من جميع الأراضي التي لم تستخدم بعد في انتاج النفط وبنسبة (٩٩،٥) بالمئة من حقوق التنقيب المعطاة للشركات بموجب اتفاقات النفط.

من ثمار هذا القانون وأهميته هو المحافظة على حجم وكمية الثروة النفطية والمخزونة في باطن الأرض وعدم استنزافها من قبل الشركات النفطية لمصالحها فقط، ولهذا فأن حق استثمارها عاد الى العراق حيث اصبح له حرية كاملة لمفاتحة شركات دولية أخرى والدخول معها في اتفاقيات عادلة ضمن مصلحة الشعب العراقي وهذا ما اظهر الآن وبعد مرور (٥٠) سنة حيث تمت عملية التراخيص مع عدد من الشركات العالمية وفق شروط ومعايير عادلة ومنصفه، وخلاصة الأمر أن القانون رقم(٨٠) أبقى الثروة النفطية على حجمها الطبيعي دون استنزاف، حيث من المعروف ان مادة النفط قابلة للنضوب بقدر الكميات المستخرجة من احتياطياته، كذلك أدى الى أبقاء سعة العراق الإنتاجية بمقدار ثابت وعدم زيادتها من الآبار التي استكشفت بعد حين ومنها حقول الرميلة والزبير وكركوك. اذن حافظ على كمياتها الى يومنا هذا مما أتاح الى الحكومة العراقية مفاتحة الشركات العالمية للدخول في اتفاقيات وجولات التراخيص الثلاث بهدف زيادة سعة العراق الإنتاجية لتصل الى ٦-٨ ملايين برميل يومياً في غضون ٤ سنوات قادمة.

الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ ..الأحلام المجهضة والأسئلة المفتوحة

علي حسن الفواز

تحمل أحداث الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ ذكريات وشجوناً واسئلة كثيرة، وحتى تسميات وتوصيفات متعددة، ولعل أقسى هذه الأسئلة هو ما يتعلق بهوية هذه الاحداث، هل هي ثورة حقا؟ ام هي شكل من اشكال التمرد الاجتماعي او الانقلاب العسكري؟ وان كانت ثورة بالمعنى التوصيفي، فهل كانت ثورة للفقراء حقا؟ ام كانت ثورة للعسكر، أم ثورة للايديولوجيات. ام انها ثورة للمصالح والصراعات؟ هوية هذه الأحداث/الثورة تلبست بهذه التقاطعات والتجاذبات التي تشبه الاسئلة تماما، رغم انها اخذت من كارزما زعيمها عبد الكريم قاسم الكثير من الامتيازات، حتى ان المزاج الشعبي للفقراء او سكان الهامش الاجتماعي يصفونها بأنها ثورة هذا الزعيم الكبير، ولم يتحدث هذا المزاج عن اي دور عميق الاثر لجبهة للاتحاد الوطني او حتى زعماء العسكر الذين شاركوا في صناعة هذه الأحداث. واحسب ان هذه المواصفات التي ارتبطت بهذا الرمز الوطني هي التي جعلت هذا المزاج ذاته يدافع عنه بالدم والتضحيات الجسام عند حدوث انقلاب ١٩٦٣ولم يكن يدافع عنها كثورة وطنية للتحول السياسي أطاحت بتاريخ ونظام ملكي عميق الأثر في المكان العراقي والمكان العربي والاسلامي..

الاسئلة الاخرى تبدو احيانا اكثر توغلا واكثر قسوة، واحيانا تستعير من الايديولوجيا اكثر مما تستعير من الواقع، وتضع حساباتها في سياق من معطيات القراءة التي تعالج الأحداث وتحلل وقائعها بعين مؤدلجة أكثر مما هي عين واقعية تلامس حيثيات هذا التاريخ الدامي هذه الصراعات المريعة التي تسبب عن الكثير من الموت والعنف والسجون والمنافي.

السؤال الذي بات معاصرا في إطار استقرائه لما جرى بعد أحداث الرابع عشر من تموز١٩٥٨، هل كانت هذه الثورة ضرورية؟ وهل الظرف السياسي في المنطقة العربية والدولية كان مؤاتيا لانتاج مثل هذه الثورة ضمن قياساتها وتوجهاتها المعروفة؟ وهل ان الثورة كانت تمتلك كل مبرراتها الموضوعية والاجرائية لكي تعلن بيانها الاول الذي تحول الى بيان سحري حرك كل شجون وافراح الناس الذين كانوا يبحثون عن منقذ، وعن رغبة حقيقية في التغيير؟ وهل ان ما جرى من أحداث خلال ايام الثورة من سحل وقتل مريع للعائلة المالكة ضروري لإعلان الانتصار الكامل على العهد القديم؟

الكل يعتقد تقريبا ان النظام الملكي القديم قد فقد مبررات وجوده السياسية والإدارية، وان طبيعته التقليدية وعدم قدرته على التجدد أسقطت من حسابه الكثير من التوهج والقدرة على مواجهة التحديات الصراعية داخل الفضاء العراقي المحتقن بمجموعة من الظواهر التي يشكل لبناتها الأساسية العديد من التشكلات السياسية والحزبية والعسكرية، لكن هناك من يقول ان الثورية وبرغم كل رومانسيتها ونزعاتها التجديدية، وبعض قوانينها كالثورة في الاصلاح الزراعي وفي الخروج من دائرة الاسترليني وفي اشاعة اشكال محددة للحريات الاساسية وفي تقديم قانون جديد للاحوال الشخصية وغيرها من القوانين، الاّ انها علقت كل مظاهر الشكل الديمقراطي التقليدي للدولة القديمة(تعددية في الأحزاب، تعددية الصحف، برلمان، انظمة وقوانين مدنية، علاقات دولية عميقة)، وفتحت الباب للعنف السياسي والعنف العسكري واعطت السلطة كاملة للعسكر وهمشت دور القيادات المدنية في الحياة العامة وفي ادارة شؤون الدولة والمجتمع.. وهذه الوظيفة التي وجدت الثورة نفسها غاطسة فيها بكل رموزها وعلاماتها وقواها برزت بعد سنة واحدة من الثورة حينما بدأت الطموحات الشخصية للقادة العسكريين ذوات المرجعيات الملتبسة امثال عبد الوهاب الشواف والطبقجلي ورفعت الحاج سري وعبد السلام محمد عارف وغيرهم والتي دفعت جهاز الثورة وقادتها الى معالجات عسكرية خالصة من خلال قمع التمردات العسكرية، واحسب ان هيمنة النزعة العسكرية هي التي قادت فيما بعد الى محاولة اغتيال الزعيم ذاته وتصفيته فيما بعد، فضلا عن انها فتحت الجرح العربي الطائفي والقومي والسياسي على اقصاه، اذ استعرت مؤامرات الطوق العربي بكل ما اوتيت من قسوة لاسقاط الثورة وتخريب منجزاتها وتأليب بعض القوى السياسية والحزبية التي تدور في فلكها، فضلا عن تخريب النسيج العراقي المتنوع وتشكيل مجموعة من الاصطفافات التي ادت الى تمزيق الصف الوطني والسياسي والاجتماعي واسقاطه داخل اتون من الصراعات الدامية والشكوك والتخندقات التي افرزت فيما بعد منظومة كبيرة من الافكار والاتجاهات والمفاهيم اللغوية والفكرية الطاردة للاخر. كل هذا المآل والمخاضات والتصدعات التي حدثت في الجسد السياسي والثقافي العراقيين وضعت العصا امام الثورة بمفهومها كتغيير اجتماعي واقتصادي وامام قادتها كرموز للمجتمع والحكم، وربما التعمد في افشال أي نزعة لتشكيل مشروع وطني قد يرتبط بهذه الأحداث وتغييراتها وأنماط اصطفافها السياسي والديموغرافي الجديد، رغم ان المحيط العربي كان كله يمر بحراك تحرري سياسي ونضالي واسع وتحت يافطات وعناوين معاداة الاستعمار والرجعية، وهو ماكان يرفعه قادة ١٤ تموز، فضلا عن ان القوى السياسية التقدمية في هذا المحيط كانت في اغلبها تمارس نوعا من الاعلان الصريح عن توجهات الانعتاق من مهيمنات هذا الاستعمار القديم وأشكال حكوماته التقليدية واشكال ارتباطها بعديد المعاهدات التي عدّتها القوى الوطنية بمثابة الخيانة الوطنية، وان شروطها تشبه القيود المفروضة على نهوض وحرية الحركات الوطنية واحزابها ذات الايديولوجيات التي اختلط فيها الثوري والرومانسي والمخيال الشعبي واحيانا الطموحات غير الواقعية، الاّ انها وفي تعاطيها مع حالة الثورة العراقية وقعت في تناقضات غريبة وازدواجية أكثر غرائبية تجلى فيها الحس الطائفي والشعبوي الغريب الذي جرد رموز الثورة وقواها الشعبية من كل مرجعياته الثورية والتقدمية والوطنية وأسقطها في خانة ضيقة عمدت الى تشويه رموزها وتوجهاتها وافكارها وحتى برامجها تحت يافطات بدأت وكأنها دخيلة على الأجندة الثقافية والسياسية العراقية، وفيها الكثير من شفرات الصراعات الاثنية التي عاش أزماتها المرعبة العقل العربي في مراحل قديمة من التاريخ السياسي.

طبعا هذه المواقف والممارسات لم تكن غريبة في جوهرها لأنها تكشف اساسا عن تعقيدات العقل السياسي والايديولوجي العربي وتشكلاته وازمات خطابه الفقهوي المحتقن بوعي نكوصي إكراهي والخاضع أحياناً للكثير من الإشاعات التي كانت تروج لها قوى اجتماعية مرتبطة بأجندات داخلية وخارجية، والذي مازال للاسف يحمل ذات العلامات المرضية القديمة التي تواجه الحالة العراقية الجديدة..

ازاء هذا الواقع الجديد وانزياح مساراته عمد قادة الثورة العسكريون وبعض الايديولوجيين الى مواجهة ذلك بشيء من العنف المباشراحيانا وشيء من التغافل والتسامح غير المحسوب بموضوعية، وطبعا ادى كل ذلك الى ايجاد الكثير من الثغرات في البنية السياسية والامنية والاجتماعية، فضلا عن اثارة الكثير من المشاكل التي فرضت تداعياتها على الواقع وعلى الحراك السياسي، والتي تسبب بعد خمس سنوات من الاضطرابات في سقوط هذه الثورة تحت همجية ورعب اسوأ انقلاب دموي عاشه العراق السياسي في تاريخه المعاصر والذي تسبب عن موت الالاف من المدنيين، وانهيار الحلم العراقي، وسقوط فكرة التآخي الوطني وصعود نموذج السلطة العسكرية الديكتاتورية الشوفينية التي انتجت فيما بعد نموذج المهيمن الايديولوجي والسياسي الشمولي في الدولة العراقية..

مراجعة تاريخ الثورة وقراءة ملفات الأحداث التي صنعتها ورافقتها، يعني قراءة كل إشكالات خطابها السياسي وفحص كل الأزمات التي واجهتها والأسئلة التي أثارتها، فضلا عن قراءة الآليات الدفاعية والوقائية التي اعتمدتها، والتي ستضعنا حتما امام إعادة إنتاج مرعبة للتساؤلات القديمة، والخيارات التي وضعتها امامها في التعاطي مع حسابات وحساسيات القوى الداخلة فيها والخارجة عنها وطبيعة المحيط العربي والدولي الذي يحيط بها والتعرّف على الأدوار التي لعبتها هذه القوى في صعود الثورة وفي انهيارها.

فهل جاءت الثورة في ظرفها الصحيح، وفي زمنها الصحيح وضمن خياراتها الصحيحة؟ وهل ان قوى جبهة الاتحاد الوطني وحركة الضباط الاحرار والقوى السياسية الوطنية وضعوا في حسابهم تعقيدات الارض السياسية العراقية التي يتحركون عليها؟ وهل امتلكت هذه القوى قدرة او خيارا اخر للتعاطي مع مشكلات النظام الملكي القديم بعيدا عن التوصيفات الجاهزة التي كان ينعتها بها الاعلاميون والايديولوجيون ومروجو الاشاعات وأصحاب الثقافات الشعبية، وباتجاه اعادة انتاج النظام وتطوير بعض الحلقات المفتوحة داخل بنيته السياسية مثل الديمقراطية المحدودة والتشكلات الهرمية في نظامه السياسي، دونما اللجوء الى العنف الذي ادى الى تصنيع ظاهرة العسكرة المرعبة داخل المجتمع العراقي والتي انتجت لنا الحروب والايديولوجيات المحاربة والصراعات التي دمرت الدولة والمجتمع، وصنعت لنا اشكالا معقدة من التخندقات التي دمرت القوى التقدمية وهشمتها قبل ان تدمر القوى الرجعية الطائفية المقيتة، لأن صعود الارهاب السياسي للقوى الرجعية بكل اشكالها الدموية كان بسبب الانهيارات المتواصلة للمشروع الوطني الطامح لإنشاء الدولة العادلة الجامعة التي تحترم الجميع وتشرعن وجودها على اساس المواطنة والعدل والحق واشاعة الحريات واعلان الدستور واحترام حقوق الإنسان، وبسبب هيمنة النزعة العكسرتارية التي همشت أي حراك حقيقي للديمقراطية وتعليق الحياة الدستورية وقادت فيما بعد الى أشكال معقدة من الحكم التوتاليتاري العسكري ذي الطموحات المضخمة التي اصطنعت لها موجهات ونزعات ادت فيما بعد الى الحروب العبثية وتصفية القوى المناوئة للسلطة.

تاريخ المحنة العراقية هو تاريخ هذه الدولة التي صنعت لنا ارهاب الدولة وارهاب الايديولوجيا وارهاب العسكرة والتي حرفت الدولة عن مشروعها وحرفت الايديولوجيا عن نظامها الفكري وحرفت العسكرة عن قيمها الاخلاقية والمهنية، وكلنا يعرف حجم التشوهات التي تعرض له هذا الثالوث بسبب نمط القوى السياسية التي صعدت الى ادارة الدولة والايديولوجيا والعسكر بعد انهيار ثورة تموز ١٩٥٨، وكأن تصفية حسابها مع الثورة ومع رموزها الوطنية هو تصفية الحساب مع التاريخ ومع الشعب، اذ ان توجهات سلطة ما بعد ١٩٦٣ كان توجها معقدا لصيرورة الدولة القامعة الاقصائية التي وضعت حواجز بين بنيات المجتمع، واخضعت جغرافيته الديموغرافية وحتى الطوبوغرافيا الى حدود افرزت اشكالا وانماطا احسبها هي الجوهر الذي انتج الكثير من محن الشعب العراقي وتورطياته في حروب عبثية اقصائية تطهيرية، مثلما انتجت لنا المعادلة الجديدة للواقع العراقي ما بعد ٢٠٠٣.

السؤال يخص الجميع من علماء السياسة والاجتماع يكمن في وضع معطيات أحداث ١٤ تموز/١٩٥٨ امام تاريخ ما حدث بعدها من تغيرات نوعية أصابت المجتمع العراقي، وأصابت المشهد السياسي بفوبيا الدولة الوطنية، فضلا عن الدعوة إلى إعادة قراءة ملفات الثورة والاستفادة من دروسها وظروفها وقراءة اسباب انتكاستها بعد زمن وجيز، رغم كل ما كانت تتمتع به من دعم شعبي ووطني، لكنه كان بدون مؤسسات، مثلما هو العمل على معاينة وتوصيف طبيعة الأخطار الظاهرة والمستترة التي ظلت تنخر في الجسد الاجتماعي والتي يمكنها ان تظل أشبه بالنسق الذي ينتج على الدوام عوامل تهدد النظام الاجتماعي والسياسي لمشروع الدولة العراقية. هذه الدروس هي دروس للحاضر والمستقبل، دروس لانتاج الحياة الصحيحة في قيمها وفي معادلاتها بعيدا عن الحياة التي قدمت لنا طوال خمسين عاما احلاما مجهضة وحروبا دامية وارهابات اقصت حريتنا وامالنا وتركتنا عند حافة المجهول دائما..